«الحياةُ العلميَّةُ والثَّقافيَّةُ في بيروت» في الربعِ الأخيرِ من القرنِ التاسعِ عشر وبدايةِ القرنِ العشرين

د. خالد عبد القادر الجندي

أستاذ مادة التاريخ الحديث والمعاصر

في الجامعة اللبنانية

المقدمة:

كثيرةٌ هي المواضيعُ المتعلقةُ بتاريخ العرب والبلاد العربية في العهد العثماني، والتي لم يتم البحثُ فيها ودراستها دراسةً معمّقةً، ولا يمكن دراستُها إلاّ بالعودة إلى الأرشيف العثماني، والاستعانة بوثائقه. ويأتي في أولويّات هذه المواضيع التي تفتقر إليها المكتبات العربية بشكلٍ خاصٍّ، موضوعُ: «التعليم والحياة الثقافية في البلدان العربية في العهد العثماني»، باستثناء بعض الدراسات التي صدرت من هنا وهناك. ومن هذه الدراسات التي أُجريت، والتي بحثت الموضوع بكل جوانبه، معتمدةً على الوثائق العثمانية، هي تلك التي أجراها الأستاذ الدكتور «فاضل بيات»[1].

إن التعليمَ والجهودَ التي بذلتها الدولة العثمانية في نشر العلم في الولايات العربية العثمانية، وخصوصاً بعد عهد التنظيمات، وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لجديرةٌ بتوقف الباحثين عندها، ودراستها دراسةً متأنّيةً وعميقةً، استناداً إلى الوثائق العثمانية و«سالنامات» الدولة العثمانية. فقد شاعت فكرةٌ خاطئةٌ عن هذا الموضوع انسحبت على الدولة العثمانية برمتها، وهي أن الدولة العثمانية لم تبذل الجهودَ اللازمةَ لتعليم أبناء الولايات، ونشر المؤسّسات التعليمية في الولايات العربية. وكان هذا الشعورُ عند المسلمين أكبرَ منه عند المسيحيين، لأن أبناء الطوائف المسيحية كانوا يتلقّون

---

(١) فاضل بيات، المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني، دراسة تاريخية إحصائية في ضوء الوثائق العثمانية، استانبول: منظمة التعاون الإسلامي (أرسيكا)، ٢٠١٣م.

تعليمهم في المدارس الإرسالية، فلم يكن لديهم أدنى شكوى أو تذمُّر، إلاّ القلّة القليلة. فالمسلمون اعتبروا أن الدولة العثمانية مسؤولةٌ عنهم ديناً ودنيا. والحقيقة أن الدولة العثمانية لا تتحمّل وحدها مسؤولية «التقصير» الحاصل في فتح المدارس، وخصوصاً لدى المسلمين، وإنما كان هناك عدة أسبابٍ أدّت إلى «تقصير» الدولة في فتح المدارس في الولايات العربية العثمانية ـ سنأتي على ذكر الأسباب في ما بعد ـ. وحمَّلَ أبناءُ البلاد العربية الدولةَ العثمانية مسؤوليةَ الجهل الذي تفشّى بينهم، والتخلف الذي لحق بهم طيلة العهد العثماني، وخصوصاً أبناء الطائفة الإسلامية. ومما لا شك فيه، أن شيوعَ هذه الفكرة نتج بالدرجة الأولى عن غياب الوثائق العثمانية عن دراسات معظم الباحثين العرب، وذلك عائدٌ لسببين:

أولهما: أن معظم الباحثين والمؤرِّخين العرب كانوا ينهلون من مَعين المستشرقين والمؤرِّخين الأوروبيين، الذين حاولوا بشتّى الطرق تشويهَ صورة الدولة العثمانية، وإلصاقَ تهمة الجهل والتخلُّف بها. وللأسف، كان معظم الباحثين العرب والمسلمين يردِّدون، كالببغاوات، ما كان يردِّده هؤلاء المستشرقون.

ثانيهما: جَهْلُ معظم الباحثين والأكاديميين العرب اللغةَ العثمانية، وهي لغة الوثائق العثمانية، الأمر الذي انعكس سلباً على كتاباتهم، وساهم في جهلهم بحقيقة وواقع التعليم في الدولة العثمانية، لذلك جاء الكثير من الدراسات حول هذا الموضوع مفتقراً إلى الدّقة والموضوعية. والمعروف أن الوثائق العثمانية تزخر بمعلوماتٍ لا يمكن تجاهلها في دراسة أيِّ جانبٍ من جوانب التاريخ العثماني.

إن دراسة التعليم في ولايةٍ من الولايات العربية العثمانية، وخصوصاً ولاية بيروت أو سنجق بيروت، تحتاج إلى جرد جميع ملفات الوثائق العثمانية الأرشيفية كـ (سالنامات الولايات، وسالنامات نظارة المعارف)، خصوصاً أنه في مدينة بيروت، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ونتيجةً لتسامح وعدالة الدولة العثمانية مع الأقليات الدينية والدول الأوروبية، استُغلّ هذا التسامح بفتح المدارس الإرسالية، وكانت بيروت مزيجاً من الأقليات الدينية المسيحية واليهودية، عدا عن المذاهب الإسلامية العديدة، وأصبحت مرتعاً خصباً للسّفارات والقناصل الأوروبيين الذين شجّعوا على

إنشاء الإرساليات الأجنبية، والمدارس التبشيرية، والمدارس الأهلية المسيحية، وقدّمت الدول الأوروبية كل أنواع الدعم المادي والمعنوي لها[١].

نبذةٌ عن التعليم في الدولة العثمانية:

علّمونا في المدارس، أن الدولة العثمانية، خيّم عليها الجهل والتخلّف، وأن ما أصاب الولايات العربية من جهلٍ، وتأخُّرٍ في اللحاق بركب تلقِّي العلوم، مردُّه إلى الدولة العثمانية، ولم يعلِّمونا أن السلطان أورخان (١٣٢٤ ـ ١٣٦٢م)[٢]، السلطان الثاني للدولة العثمانية، هو أول من بنى مدرسةً نموذجيةً، وسار من بعده سلاطين الدولة على نهجه، وانتشرت المدارس والمعاهد في بروسة (بورصة) وأدرنة وغيرهما[٣].

وقد تفوّق محمد الفاتح (١٤٣٢ ـ ١٤٨١م) على أجداده في هذا المضمار، وبذل جهوداً كبيرةً في نشر العلم وإنشاء المدارس والمعاهد، وأدخل بعض الإصلاحات في التعليم، وأشرف على تهذيب المناهج وتطويرها، وحرص على نشر المدارس والمعاهد في جميع المدن الكبيرة والصغيرة، وكذلك القرى[٤].

وإذا أردنا الحديث عن اهتمام سلاطين بني عثمان بالتعليم في الدولة العثمانية، لطال بنا الحديث، لكن لا بد من إيجاز تاريخ التعليم في الدولة، وبدايته، وكيف كان، وأهم الإصلاحات التي أُدخِلَت عليه.

بدايات التعليم:

كان التعليم عند العثمانيين يقتصر في بداية الأمر، بالدرجة الأولى، على تعليم الأمور الدينية، شأنه في ذلك شأن التعليم في الدول الإسلامية الأخرى، إذ شاع في الدولة

(١) راجع في ما خصّ الإرساليات الأجنبية والمدارس التبشيرية والمدارس الأهلية المسيحية:

أ ـ جريدة ثمرات الفنون من العام ١٨٧٥م إلى العام ١٩٠٨م.

ب ـ جورج أنطونيوس، يقظة العرب، تر: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٦٦.

ج ـ موفق بني المرجة، صحوة الرجل المريض والسلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية، بيروت: دار البيارق، ١٩٦٦.

د ـ Nemer SABBAH, *L'évolution culturelle au Liban*, Lyon, Janody, 1950.

(٢) كان السلطان أورخان، السلطان الثاني في الدولة العثمانية، قد حكم خلال فترة ١٣٢٤ ـ ١٣٦٢م. راجع: صالح كولن، سلاطين الدولة العثمانية، تر: منى جمال الدين، مصر: دار النيل للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١١، ص١٠.

(٣) علي محمد الصلابي، السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية، بيروت: المكتبة العصرية، ط٢، ٢٠١٠م، ص١٤١.

(٤) جمال عبد الهادي محمد سعود ووفاء محمد رفعت، صفحاتٌ مطويةٌ في تاريخ وحضارة الدولة العثمانية، ج٢، مصر: دار السلام للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٩م، ص٦٨٨.

العثمانية نظام تعليم الكبار في المدارس التقليدية الإسلامية، التي كانت مخصّصةً لتعليم العلوم الدينية، ونظامُ تعليم الصّغار في مدارس الصبيان «الكتاتيب»، التي أقامها أصحاب الخبرات في الأحياء، والمدن، والقصبات، والقرى، وكانت نسخةً بدائيةً من المدارس الابتدائية، وتولّى التدريس في كلا النوعين علماءُ الدِّين[1]. وكان يُطلق على المعلم في «الكُتّاب» لقب «الشيخ»، أو «المؤدِّب»، أو «المطوِّع» في الجزيرة العربية[2]. وكان هناك بعض كتاتيب للبنات، ويُطلق على الشيخة «المعلمة» لقب «الخوجاية»، وكان التعليم في «الكُتّاب» مجاناً[3].

وما كان التعليم الأوّلي عند الطوائف المسيحية ليختلف في جوهره عن التعليم عند المسلمين، أي أنه كان تعليماً دينياً، ويتمُّ في كتاتيب، أو في الأديرة والكنائس. وكان يُضاف إليه تعلُّم «اللغة السريانية»[4].

ويلي مرحلة التعليم الأوّلي تلك في الولايات العربية، ما يمكن أن يُطلق عليه اسم «التعليم العالي». ولقد كان يسير هو الآخر، وفي جميع الولايات العثمانية، على نسقٍ واحدٍ، وكما كان عليه في المرحلة السابقة لحكم الدولة العثمانية، وكان يجري في المساجد والمدارس والزوايا[5].

التعليم العصري:

إن «التعليم العصري» الذي تبنّته الدولة العثمانية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وحتى العقد الثاني من القرن العشرين، نقلته إلى الولايات العربية التي كانت لا تزال تحت حكمها المباشر. وبعد أن تولّى السلطان محمود الثاني الحُكْمَ (١٨٠٨ـ ١٨٣٩م) قام بحركة إصلاحاتٍ واسعةٍ في بنية الدولة وحياة المجتمع، وأقرَّ بالدور الكبير لمؤسسة التعليم في الاستجابة لمتطلبات الدولة، فكان عليه أن يقوم بتحديث التعليم،

(١) علي محمد ابراهيم، الحياة الإجتماعية والفكرية في الدولة العثمانية (١٨٠٨م ـ ١٩٠٨م)، نقلًا عن: محمد زكي بقالين، أحداثٌ مع شيوخ الكتاتيب، استانبول، ١٩٧٢م، ص١٤٦.

(٢) محمد حسن العيدروس، الحياة الفكرية في شرق الجزيرة العربية في العهد العثماني (١٨٧٠م ـ ١٩١٢م)، المجلة التاريخية المغاربية، العددان ٥٧ و٥٨، تونس، تموز ١٩٩٠م، صص٣٩١ـ٤٢٤.

(٣) عبد الجبار الحاج عثمان، التعليم الرسمي التقليدي والأهلي عند المسلمين في بلاد الشام ما بين ١٨٧٨ـ١٩٢٠، رسالة ماجستير، قسم التاريخ بجامعة دمشق، ١٩٨٠، ص٣١.

(٤) إكمال الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، نقله إلى العربية صالح سعداوي، ج٢، إستانبول، ١٩٩٩، ص.٧١١.

(٥) م. ن، ص٣١١.

وإنشاء مدارس حديثةٍ تتولى إعداد خرّيجين قادرين على تحقيق التغيير والإصلاح في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والعلمية[1].

ويُلاحظ أن القائمين بأمور الدولة لم يضعوا في حساباتهم المدارس التقليدية، بل أصبح جُلّ اهتمامهم مُنصَبّاً على مدارس الصبيان، لكونها تمثل الأساس الذي يُبنى عليه التعليم بشكلٍ عام. وكان السلطان محمود الثاني قد أصدر أمره إلى مجلس أمور النافعة (مجلس الإعمار)، لإعداد لائحةٍ بالمؤسسات التعليمية الضرورية، وكيفية تنظيم المدارس المتوافرة، والمتمثلة في مدارس الصبيان. وأعدَّ المجلس لائحةً في ٥ شباط ١٨٣٩م، وأقرَّ بضرورة إجراء الإصلاح في التعليم، وأكّد على أن خلاص الدولة مما تعانيه من انحطاطٍ لا يمكن تحقيقه إلاّ بتطوير التعليم وتوسيعه، ورأى أنه لا يمكن تحقيق التنمية في البلاد، ولا يمكن تطوير الآلة العسكرية للدولة، إلاّ بإقامة مؤسساتٍ تعليميةٍ جديدةٍ قادرةٍ على التكيّف مع متطلبات العصر.

ورأى المجلس أن الهزائم العسكرية التي أصابت الدولة العثمانية في نهاية القرن السادس عشر، والقرن السابع عشر، ألزمت الدولة أن تأخذ هذا الأمر على محمل الجد، وألاّ تبدي أيَّ تهاونٍ بشأنه، وأن تعمل على كل ما من شأنه تطوير قدراتها الذاتية وتعزيز صمودها. كما أشارت اللائحة إلى النهضة العلمية التي تحققت في الغرب، وما رافقها من تقدُّمٍ عسكريٍّ في ميادين الحرب. ورأت أن التقدم العسكري الذي شهدته الدولة في أوج عظمتها، تزامن مع عهد تقدّم التعليم والعلوم. وعلى الرغم من إقدام الدولة على إقامة بعض المدارس ذات المستويات المتقدمة في المجالات العسكرية والهندسية والطبية، إلاّ أن هذه المدارس لم تكن كافيةً، ولا تفي بالحاجة المطلوبة. ولم يكن بالإمكان معالجة الأمر إلاّ بالمباشرة بالدراسة الأوّلية، أي الابتدائية التي كانت تشهد تردّياً في أوضاعها العامة. وبدون تنظيم هذه المدارس وتحسين أوضاعها، لا يمكن مواكبة المدارس ذات المستويات المتقدمة، وأهدافها، لذلك اقترحت اللجنة من بين البنود العديدة، جَعْلَ التعليم الابتدائي إلزامياً[2].

(١) فاضل بيات، المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني، م. س، ص١٦.

(٢) سالنامة نظارات معارف عمومية، ج٦، ١٣٢١هـ، صص١٦ـ١٩.

وبعد أن تولّى عبد المجيد الأول الحكم في العام ١٨٣٩م، أعلن عن رغبته في اتخاذ الإجراءات اللازمة لتطوير التعليم، كما أعلن عن مكافحة الجهل، وتوفير التعليم، وجعله ينسجم مع الحياة العامة، وتأسيس المدارس، ونشرها في أرجاء الدولة كافة[١].

وفي العام ١٨٥٠_١٨٥١م تم تشكيل «أنجمن واتـش»[٢]، ليصبح أعلى وأرفع مؤسسةٍ للمعارف في الدولة العثمانية، وكان عدد أعضائه الأصليين أربعين ومن أرفع شخصيات الدولة، أما الأعضاء غير الأصليين فكان عددهم محدوداً، كما كان يضم في عضويته الصدر الأعظم، وشيخ الإسلام، وسر عسكر (قائد الجيش ورئيس مجلس دالا)، ووزيري الخارجية والتجارة. وقد أخذ هذا المجلس على عاتقه تأليف وترجمة الكتب التي يتم تدريسها. وفي رمضان من العام ١٢٧٣هـ_١٨٥٧م عُيِّنَ سامي باشا أول وزيرٍ لنظارة المعارف العمومية[٣].

وقد نُظِّمت المدارس في الدولة العثمانية بموجب نظام المعارف الصادر في ٢٤ جمادي الأولى ١٢٨٦هـ_١٨٦٩م، والذي صيغ في ١٩٨ مادةً، وبموجب هذا النظام قسمت المدارس إلى خمس مراحل:

المرحلة الابتدائية: نصَّ نظام المعارف على وجوب وجود مدرسةٍ ابتدائيةٍ في كل قريةٍ، أو على الأقل في كل قريتين، على أن يدفع أهل القرية نفقات إنشاء المدارس وتعميرها، ومخصَّصات المعلمين فيها، وكان التعليم في هذه المرحلة إلزامياً[٤]، ومدة الدراسة فيها أربع سنوات.

المدارس الرشدية: نصَّ نظام المعارف على وجود مكتبٍ رشديٍّ واحدٍ في كل بلدٍ يتجاوز عدد سكانه الـ ٥٠٠ نسمةٍ، شريطة أن يكون طلابه مسلمين ومسيحيين، ومدة الدراسة في هذه المرحلة أربع سنوات[٥].

---

(١) فاضل بيات، المؤسسات التعليمية في المشرق العربي...، م. س، ص١٨.

(٢) أنجمن واتش، ويعني مجلس أو جمعية العلوم والفنون، تمَّ تشكيله من أرباب العلم.

(٣) فاضل بيات، دراسات تاريخ العرب في العهد العثماني، رؤيةٌ جديدةٌ في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية، بيروت: دار المدار الإسلامي، ٢٠٠٣، ص٢٦٥.

(٤) الدستور، تر: نوفل أفندي نعمة الله نوفل، مراجعة وتدقيق خليل أفندي الخوري، مج٢، بيروت: المطبعة السورية، ص١٠٧.

(٥) جريدة إقدام، العدد ١٤٩٤، تاريخ ٧ أيلول ١٨٩٨م.

المدارس الإعدادية: تؤسَّسُ المدارس الإعدادية في الأقضية أو الألوية التي يتجاوز عدد بيوت سكانها الـ ١٠٠٠ بيتٍ، ومدة الدراسة في هذه المرحلة ثلاث سنوات[١].

المدارس السلطانية: ويُقبَل في هذه المدارس الطلاب الناجحون في امتحان المرحلة الإعدادية، ولا توجد المدارس السلطانية إلاّ في مراكز الولايات[٢].

وقد أنشأت الدولة إدارةً خاصَّةً للمعارف في كل ولايةٍ، تشرف على المدارس، ويرأس المعارف في الولاية مدير معارف، ويعاونه مساعدان، أحدهما مسلمٌ والآخر غير مسلمٍ، مع أربعة محققين، وعشرة أعضاءٍ ينتمون إلى دياناتٍ مختلفةٍ، وكاتبٍ، وأمين صندوقٍ، ومحاسب[٣].

وبعد أن تولّى السلطان عبد الحميد الثاني الحكم سنة ١٨٧٦م، عمل على تطوير التعليم، وتحديث أساليبه، وتطوير مناهجه، وشَمَل السلطانُ برعايته كل أنواع المدارس، وجميعَ الولايات العثمانية عموماً، والولايات العربية خصوصاً، فشهد التعليم برمَّته في هذا العهد تطوراً وتوسعاً كبيرين، وأقيمت لأول مرةٍ مؤسساتٌ تعليميةٌ جديدةٌ، وبمختلف المستويات، ومنها المدارس العالية. ولم يقتصر تأسيس المدارس العالية على مركز الدولة فقط، بل جرى نشرها في أرجاء الدولة كافةً، فكانت حصة الولايات العربية منها كبيرة[٤].

التعليمُ في بيروت:

لمحةٌ عامَّةٌ عن الوضع السياسي والجغرافي لبيروت:

ظلّت البلاد العربية بمعظمها خاضعةً للدولة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، وفق نظامٍ إداريٍّ تحدده الدولة التي كانت تُقسم إلى ولاياتٍ، والولايات إلى ألويةٍ (سناجق)، والألوية إلى أقضيةٍ، والأقضية إلى نواحٍ[٥].

ومنذ القرن الثامن عشر، قُسمت بلاد الشام إلى ثلاث ولاياتٍ، هي: ولاية حلب، ولاية سورية، وولاية طرابلس. وضَمَّتْ ولايةُ حلب ألويةَ: أضنة، بالسن، وحلب. وضَمَّتْ ولايةُ سورية الشام، ومركزها دمشق، الألويةَ الآتية: دمشق، القدس، غزة، نابلس، عجلون،

---

(١) م. ن.

(٢) الدستور، م. س، صص١٦٣_١٦٤.

(٣) سالنامة ولاية سورية، دفعة ١٨، ص٥٥.

(٤) فاضل بيات، المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني، م. س، ص٢١.

(٥) ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، معهد الدراسات العربية العالمية، ١٩٧٥م، ص١٣٨.

صور، صيدا، بيروت، الكرك والشوبك. وضَمَّتْ ولايةُ طرابلس: لواء طرابلس، وحمص، وحماه، والسلمية، وجبلة[١].

وبعد العام ١٨٦٤م، جرت تقسيماتٌ جديدةٌ، فَقُسِّمت ولايةُ سورية إلى عدة ألويةٍ، منها: لواء القدس، ولواء طرابلس، ولواء بيروت، ولواء عكا، ولواء اللاذقية[٢].

وفي السادس من ربيع الآخر عام ١٣٠٥هـ الموافق له ١٨٨٧م، وقَّع أعضاء «مجلس مخصوص»[٣] قرار إنشاء ولاية بيروت من ألوية: بيروت، وعكا، والبلقاء، وطرابلس الشام، واللاذقية، وهذه الألوية كانت تابعةً لولاية سورية. وبعد يومين على اتخاذ القرار، أصدر السلطان إرادته السَّنِيَّةَ في ٨ ربيع الآخر ١٣٠٥هـ ـ ١٨٨٧م[٤]، بتعيين علي باشا والياً على بيروت[٥].

وكانت ولاية بيروت مزيجاً من الأديان المختلفة، من المسلمين، السنة والشيعة والدروز، ومن المسيحيين، الروم الأرثوذكس والكاثوليك، والموارنة، والسريان، والأرمن الكاثوليك، والكلدانين، والبروتستانت، ومن اليهود والسامريين[٦].

التعليم:

تميزت بيروت عن غيرها من الولايات العربية بالاهتمام الكبير الذي لقيته من الدولة العثمانية والدول الأجنبية على حدٍّ سواء، في مجال نشر التعليم، وإقامة المؤسسات التعليمية لأبناء الولاية، العرب منهم بشكلٍ خاص. وتحوَّل هذا الاهتمام إلى تنافسٍ حادٍّ بين الدولة العثمانية والأجانب، في إقامة المؤسسات التعليمية، التي شهدت أزهى

(١) عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ـ١٩١٤م، مصر: دار المعارف، لا ت، ص٦٩.

(٢) م. ن، ص. ن.

(٣) مجلس مخصوص: هو مجلس وزراء السلطنة العثمانية، كان يعقد جلسته برئاسة الصدر الأعظم وتحضره جمعية النظار، شيخ الإسلام، السرعسكر.

(٤) أشارت بعض المراجع إلى أن إنشاء ولاية بيروت كان في العام ١٨٨٨م، غير أن مصادر رسميةً عثمانيةً أشارت إلى أن إنشاءها كان في العام ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧ م، ومن هذه المصادر:
سالنامة ولاية بيروت لعام ١٣١٧ هـ، دفعة أولى، ص٢٦.
سالنامة ولاية بيروت لعام ١٣١٨هـ، دفعة ثانية، ص٦٥.
Adel ISMAIL, *Documents diplomatiques et consulaires relatifs à l'histoire du Liban et du pays du Proche - orient du XVIIème siècle à nos jours,* Beyrouth, 1978-1995, tome I, p.373.

(٥) إلياس جريج، التاريخ السياسي والاقتصادي لولاية بيروت (١٨٨٧ـ١٩١٤)، الدور الفرنسي، أطروحة أعدت لنيل شهادة الدكتوراه من الجامعه اللبنانية، قسم التاريخ، بيروت، ١٩٩٩، ص٣٠.

(٦) محمد رفيق بك ومحمد بهجت بك، ولاية بيروت، القسم الجنوبي، ج١، بيروت: دار لحد خاطر، ١٩٨٧، ص٩.

أدوارها في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ولم تألُ الحكومة العثمانية، ولا سيما في عهد السلطان عبد الحميد ومن بعده، جهداً في نشر هذه المؤسسات في كافة أرجاء الولاية، وعلى وجه الخصوص في مدينة بيروت. وقد شملت هذه المؤسسات مختلف المستويات: الابتدائية، الرشدية الملكية (المدنية)، الرشدية العسكرية الإعدادية، السلطانية، المهنية، دار المعلمين والحقوق...ألخ. ولهذا سجّل التعليم في بيروت مستوىً أعلى مما تحقق في الولايات الأخرى. وينبغي هنا أن لا ننسى الطبيعة الاجتماعية لمدينة بيروت، وانفتاحها على الغرب، وانتشار الثقافة الواسع بين أهاليها الذين كانت لديهم رغبةٌ جامحةٌ في إدخال أبنائهم المدارس، وبشكلٍ لم تشهده المدن الأخرى.

وقد تولّى تنظيم شؤون التعليم في بيروت «فرع مجلس المعارف»، وذلك في وقتٍ كانت بيروت تشكّل مركز لواءٍ تابعاً لولاية سورية، وباستثناء رئيس فرع المجلس، كان أعضاؤه، كما يُستَدلُّ من أسمائهم، من أبناء بيروت، ومع الوقت أصبح الجميع، بمن فيهم الرئيس، من أهالي بيروت[١].

لقد ظل التعليم في الولايات العربية في العهد العثماني حتى أواسط القرن التاسع عشر شأناً خارج وظيفة الدولة. فالتربية شأنٌ دينيٌّ، يتولى أمرها أُولُو الأمر من الطوائف، فالسُّنّة، وهم طائفة الدولة، يُدير أمر تربيتهم وتعليمهم مفتٍ يُعيِّنه السلطان، ويترك له حرية تسيير شؤون الطائفة، والاهتمام بأمور الأوقاف والمؤسسات الدينية والتعليمية[٢].

أما عند الطوائف المسيحية، فالتعليم كان موجوداً في كل ديرٍ وكنيسة. فالمسيحيون لهم الحقُّ في إنشاء مؤسساتهم الخاصة تحت سلطة رؤسائهم الروحيين، تبعاً لنظام المِلَّة، وبخاصةٍ الكنيسة المارونية، حيث عمد رجال الدين الموارنة الذين عادوا من المدرسة المارونية في أوروبا، إلى تأسيس عددٍ من المدارس. ولم تلبث بقية الطوائف المسيحية أن سارعت إلى إنشاء مدارسها، ابتداءً من أواخر القرن الثامن عشر، في مختلف مناطق تواجدها[٣].

إضافةً إلى التعليم الطائفي، عرفت المناطق اللبنانية نوعاً آخر من التعليم، هو تعليم المُبشِّرين والإرساليات. وهو يعود في جذوره إلى العام ١٥٣٥م، تاريخ توقيع الاتفاقية

(١) سالنامة ولاية سورية، سنة ١٣٠١ هـ، صص١٦ و١٢٣.

(٢) رؤوف الغصيني، الدولة والتعليم الخاص في لبنان، رسالة ماجستير، بيروت: الجامعة الأمريكية، ١٩٦٤، ص١٧.

(٣) حسان قبيسي، الدولة والتعليم في لبنان، الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية، ط١، ١٩٩٩، صص١٠٨ـ١٠٩.

الفرنسية ـ العثمانية الأولى، التي مُنِحَت فرنسا بموجبها بعض الامتيازات التي أسَّست للمهمة التي بدأت فرنسا تضطلع بها منذ ذلك الحين، وهي حماية الكاثوليك في الشرق(١). جُدِّدَت هذه الاتفاقية في العامين ١٦٧٣م و١٧٤٠م، حين تَكَرَّسَ اعتراف السلطنة بحق فرنسا في حماية مسيحيي الشرق من رعايا الدولة العثمانية، الأمر الذي مكّن البعثات التبشيرية من القيام بنشاطٍ تعليميٍّ، باعتباره وسيلةً من وسائل التبشير الديني(٢).

إذاً، نحن أمام أربعة أنواعٍ من المدارس في مدينة بيروت: مدارس الإرساليات التبشيرية، المدارس الأهلية المسيحية، المدارس الأهلية الإسلامية، وأخيراً المدارس العثمانية الحكومية.

مدارسُ الإرساليات التبشيرية:

لقد كان الأميركان أسرعَ من غيرهم في انتهاز الفُرص، واستغلال الوضع المتأرجح في الدولة العثمانية آنذاك، فبادروا إلى التحرك في الاتجاه الملائم لمصالحهم الثقافية وغير الثقافية، معتمدين على الجمعيات الدينية في أميركا التي كانت متحمسةً لنشر المذهب الإنجيلي. وبدءاً من العام ١٨١٩م، أخذت الجمعيات الأمريكية تتوافد إلى بيروت لفتح المدارس الإرسالية، حيث افتتحت أول مدرسةٍ في العام ١٨٢٥م، وفي العام ١٨٣٠م افتتحت أول مدرسةٍ إرساليةٍ خاصةٍ بالبنات، وأُتبِعت بواحدةٍ أخرى في العام ١٨٣٥م، وكان عدد تلميذاتها أربعين تلميذة(٣). ويمكننا القول إن التركيز كان، ومنذ البداية، على تغريب الفتاة المسلمة.

أسَّست الدول الأجنبية (مدارس إرسالياتٍ تبشيريةٍ) في أرجاء مختلفةٍ من ولاية بيروت، فاق عددُها عدَدَ ما أسَّسته في أية ولايةٍ من الولايات العثمانية. ولم تكن هذه المدارس خاصَّةً برعايا الدول التي أسستها، بل فتحت أبوابها لجميع رعايا الدولة، مسلمين كانوا أم غير مسلمين، وشجعتهم على الدخول فيها، وتنافست الدول فيما بينها في هذا المضمار. وفي ظل غياب المدارس الحكومية والمدارس الأهلية الإسلامية، لاقت المدارس التبشيرية إقبالاً من أهالي بيروت. وعلى الرغم من أن الدولة فرضت على

(١) A. HOURANI, *Syria and Lebanon*, London oxford univ. press, 1954, p.147.

(٢) Nemer SABBAH, op.cit., p.25.

(٣) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، ج٤، بيروت: دار مكتبة الحياة، ط٢، لا ت، ص٣٩٦.

هذه المدارس الحصول على ترخيصٍ رسميٍّ، إلا أنها لم تتقيّد بذلك، وظل قسمٌ منها غير مرخّصٍ له، شأنه شأن المدارس التي أسسها رعايا الدولة من الطوائف غير الإسلامية(١).

فطبقاً لما ورد في الدليل الإحصائي للعام الدراسي ١٨٩٥ـ١٨٩٦م، فإن المدارس الأجنبية القائمة في ولاية بيروت في هذه السنة، كانت كما يأتي:

خمس عشرة مدرسةً إعداديةً، ستٌّ منها للفرنسيين، وخمسٌ للأميركان، واثنتان للألمان وواحدةٌ لكلٍّ من الإنكليز والروس، وبلغ عدد طلبتها ١٥٣٤، منهم ١١١٨ طالباً و٤١٦ طالبة. وبلغ عدد المعلمين ٧٦ والمعلمات ٢٤.

ست مدارس رشدية: إثنتان منها لكلٍّ من فرنسا وإيطاليا، وواحدةٌ لكلٍّ من إنكلترا وروسيا، وبلغ عدد طلبتها ٥٣٠، منهم ٤٢٠ طالباً و١١٠ طالبات، وبلغ عدد معلّميها ٥٠، ومعلماتها ٣.

ثمان وثلاثون مدرسةً إبتدائيةً: ١٤ منها لأمريكا، و١٠ لإنكلترا، و١٠ لفرنسا، و٢ لألمانيا، و٢ لروسيا، وبلغ عدد تلاميذها ١٧٤٨، منهم ٩٣٥ تلميذاً، و٨١٣ تلميذةً، وعدد المعلمين فيها ٦٥، والمعلمات ٤١(٢).

وقد أحصت سالنامة نظارة المعارف لعامي ١٩٠٢ـ١٩٠٣م، عدد المدارس التبشيرية في سنجق بيروت وحده، حيث بلغ ٢٨ مدرسةً لكل الدول، ولمختلف المستويات، للذكور والإناث(٣). ونلاحظ من إحصاءات السالنامات أنه لا توجد دقّةٌ إحصائيةٌ في عدد المدارس.

ومجمل القول، إن ساحة التعليم في بيروت، خلال القرن التاسع عشر، لا سيما في نصفه الأول، كانت مسرحاً يكاد يكون موقوفاً على المدارس الأجنبية فقط، التي خلا لها الجو لإرساء قواعد الثقافة الغربية قبل أن تنتبه السلطات العثمانية، وتبادر إلى التعاون مع أبناء هذه البلاد في إنشاء المدارس الحكومية والأهلية، كي لا يبقى المواطنون العرب عيالاً على الإفرنج في هذا الميدان الحساس.

(١) فاضل بيات، المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني....، م. س، ص٦٩٠.

(٢) م. ن، ص٦٩٢.

(٣) سالنامة نظارة المعارف، ج٦، صص ٤٢٩ـ ٤٣٣.

وإذا كان لا بدَّ من كلمةٍ أخيرةٍ حول المدارس التبشيرية، تعكس وجهة نظرنا في الآثار التي ترتبت على وجود المدارس الأجنبية في بيروت، فإننا لا نجد حرجاً في القول بأن هذه المدارس ينطبق عليها القول المأثور «ربَّ ضارةٍ نافعة»، ذلك أن نشاط الإرساليات الأجنبية أثار في أوساط المسؤولين من الحكام العثمانيين، ومن الزعماء المحليين على حدٍّ سواء، الشعور بخطر الغزو الثقافي الأجنبي، وأيقظ فيهم الوعي القومي، وحملهم على النزول إلى ساحة التعليم، وإنشاء المدارس على أسسٍ عصريةٍ جديدةٍ، كي يساعدوا المواطنين على الاحتفاظ بشخصيتهم الفكرية الأهلية، واللحاق بركب المدنية الحديثة لمواجهة المستقبل، مُزوَّدين بالثقة بأنفسهم، والقدرة على التطور والتقدم.

المدارسُ الأهليةُ المسيحية:

إن الطوائف المسيحية في بيروت وجبل لبنان، هُيِّئ لها الاحتكاك بالحضارة الغربية الحديثة قبل المسلمين، وكان ذلك أمراً طبيعياً ومنطقياً. ذلك أن بين مسيحيِّي الغرب ومسيحيِّي الشرق وحدة حالٍ من الناحية الدينية، وهذا الأمر أدَّى بصورةٍ عفويةٍ إلى وجود رابطةٍ اجتماعيةٍ وثقافيةٍ بين الطرفين، وعلى المستوى التعليمي، إلى مبادرة المسيحيين إلى محاكاة نظرائهم في الدِّين «الغربيين» في أسلوب إنشاء المدارس على الطريقة الأوروبية العصرية.

وَأَقْدَمُ المدارس المسيحية الوطنية، هي تلك التي أنشأها بطرس البستاني، بمساعدة المُبشِّرين الأميركان الذين لم يبخلوا بخبرة رجالهم وسخاء أموالهم، وكذلك بالكتب المدرسية التي ألّفوها وترجموها بما يتلاءم وأغراضهم التبشيرية، وطبعوها بمطابعهم. وشرَّعت هذه المدرسة الوطنية أبوابها لجميع أبناء الوطن، دون تمييزٍ في الدين، أو في المنطقة، أو الطبقة الاجتماعية. وفي سنة ١٨٦٣م جرى افتتاح هذه المؤسسة تحت اسم «المدرسة الوطنية»[١].

ثم توالى إنشاء المدارس للطوائف المسيحية. فأُسِّست في سنة ١٨٦٤م المدرسة السِّريانية على أيدي القس السِّرياني «لويس الصابونجي»[٢]. ثم أُنشِئَت مدارس وطنيةٌ

(١) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، م. س، ج٤، ص٣٩٦.
(٢) الشيخ طه الولي، بيروت في التاريخ والحضارة والعمران، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٩٣م، ص٢٣٠.

أخرى، منها المدرسة البطريركية للروم الأرثوذكس في العام ١٨٦٦م[١]. وفي سنة ١٨٧٥، أنشأ الأكليروس الماروني «المدرسة المارونية» بجهود المطران يوسف الدبس، وبعد فترةٍ استُغْنِيَ عن الإسم وسُمّيت «مدرسة الحكمة»[٢]. ولم يقتصر الأمر على المسيحيين بإنشاء مدارس، بل انتقل الأمر إلى جميع الطوائف، فها هي الطائفة اليهودية تدلي بدلوها، حيث أسّس اليهود أول مدرسةٍ لهم في منطقة الأشرفية في بيروت[٣].

ثم توالى إنشاء المدارس المسيحية واليهودية في بيروت، ووفق إحصاء سالنامة ولاية سورية، فإنه في العام ١٨٨٣م كان يوجد في بيروت ٢٣ مدرسةً لجميع الطوائف المسيحية واليهودية[٤]. وحسب إحصاء سالنامة المعارف لسنة ١٣١٩هـ، فإن المدارس المسيحية الأهلية في بيروت وحدها بلغ ٢٠ مدرسةً لجميع الطوائف المسيحية، ومدرستين للطوائف اليهودية[٥]. وهكذا، نجد أن الطوائف المسيحية كانت سبَّاقةً إلى إفتتاح المدارس في لبنان، تبعاً للأسباب التي شرحناها سابقاً.

المدارسُ الأهليةُ الإسلامية:

أما المدارس الأهلية الإسلامية، فقد كانت مزريةً قياساً لمدارس الإرساليات والمدارس الأهلية المسيحية، وقد وصف لنا «الفجر الصادق» حال المدارس الإسلامية بما يأتي: «أما الطائفة الإسلامية، فإنها كانت غافلةً عن ذلك خمس عشرة سنةً، مقتصرةً في المدارس على بعض زوايا مهجورةٍ مملوءةٍ بالعفونة والرطوبة، مما يضر بصحة الطلاب، ومن المعلمين على المشايخ العميان»[٦].

وكان عبد القادر قباني، وعبر جريدة «ثمرات الفنون»، يحثُّ المسلمين بصورةٍ دائمةٍ على افتتاح مدارس لأبناء الطائفة، وكان أكثر ما يركِّز على ضرورة افتتاح مدرسةٍ للبنات[٧].

(١) جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، م. س، ص٣٤٨.
(٢) م. ن، ص٣٩٨.
(٣) جريدة ثمرات الفنون، العددان ١٥ و١٩، جمادى الأولى ١٢٩٢هـ، الموافق ١ حزيران ١٨٧٥م.
(٤) سالنامة ولاية سورية سنة ١٣٠١هـ، صص١٤٠ـ١٤٥.
(٥) سالنامة نظارة المعارف سنة ١٣١٩ هـ، صص٤٢٥ـ ٤٢٨.
(٦) الفجر الصادق، البيان السنوي لجمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، ١٢٩٧ هـ، ص٤.
(٧) جريدة ثمرات الفنون، العدد ٥٤، ٣ ربيع الاول ١٢٩٣ هـ/ ٢٧ نيسان ١٨٧٦م.

يعتبر بعض الكتَّاب والمؤرِّخين أن سبب تخلّف المسلمين، أو تأخرهم عن اللحاق بركب ترقِّي العلوم، يعود إلى الدولة العثمانية نفسها، التي كانت المسؤولة الأولى عن دينهم ودنياهم، لأنها تأخرت كثيراً في افتتاح المدارس في الولايات العربية العثمانية. ولكن فات هؤلاء أنها قد قامت بما يتوجب عليها تجاه المسلمين في هذا الموضوع، فهي لم تقصِّر في نشر الدين الإسلامي وحماية المسلمين والبلاد الإسلامية، فاهتمت بجميع نواحي دينهم، ودافعت عن العرض والشرف.

اعتبر البعض – ومنهم بعض المؤرِّخين اللبنانيين – أن تأخر المسلمين، أو «تخلّفهم» عن اللحاق بركب التعليم، مردُّه إلى الدولة العثمانية، فهي لم تهتم في ترقِّي العلوم – حسب بعضهم – أو لم تولِ العلوم العناية الكافية. ونقول إنه لا يمكن أن نعيدَ أسباب «تخلّف» المسلمين في ترقّي العلوم في بيروت والولايات العربية إلى الدولة العثمانية وحدها، فـ «تقصير» الدولة العثمانية في فتح المدارس في الولايات العربية، مردُّه إلى عوامل عدة، منها:

لم تعرف الدولة العثمانية فترة «سلامٍ» طويلةً، فطيلة عهدها كانت حروبٌ متتاليةٌ، فلم تعرف الدولة طعم الراحة منذ تأسيسها حتى سقوطها. لذلك كان همها الدفاع عن البلاد وتقوية الجيش.

تركت الدولة العثمانية أمر التعليم للطوائف والملل، فنرى أن جميع الطوائف قامت بإنشاء العديد من المدارس، إلاّ الطائفة الإسلامية.

كانت المدارس الإرسالية منتشرةً بكثرةٍ في بيروت، فتردّدت العائلات البيروتية المحافظة في إرسال أبنائها إلى هذه المدارس خوفاً من مغبة تغريبهم، ومحاولة التأثير على عقولهم، وربما «تنصيرهم»[٨]. أما الفتاة، فلم يكن يُسمحُ لها بالخروج من المنزل إلا بالحالات القصوى.

ومن الأسباب التي أدّت إلى إحجام المسلمين عن تلقِّي العلوم الحديثة، هو أن المسلم لم يكن همّه إلا أن يتعلم ابنه القرآن الكريم ويُرتِّله على أيدي الشيوخ، أي في المدارس التقليدية الإسلامية.

(٨) علي حيدر مدحت، مدحت باشا، مرآت حيرت، تر: سوسن آغا قصاب، إستانبول: مطبعة الهلال، ١٣٢٥ هـ، صص٢٠٩–٢١٠.

وممّا أدّى إلى تأخُّر المسلمين في طلب العلم، العقليةُ التي كانت تتحكّم بغالبية الأهالي، والتي كانت تعتبر أنه من العار عليها أن ترسل أبناءها لطلب العلم وغايتها في ذلك كسبُ الرزق[١].

وكان التعليم الإسلامي في بيروت في القرن التاسع عشر، يقتصر على تعليم أبناء المسلمين القرآن الكريم، وبعض الخط على يد «الكتَّاب»، وكانت غالبية الكتاتيب بمثابة مدارس قرآنيةٍ لتعليم القرآن الكريم، وكان يُعلِّم فيها ويُديرها العميان من الشيوخ، الذين كانوا يُعرَفون عند الناس «بالبُصَرَاء»، وذلك أن العرب كانت تُسمِّي الأعمى بصيراً من باب التفاؤل.

لم يبدأ المسلمون البيروتيون بفتح المدارس على الطريقة العصرية إلاّ في نهاية القرن التاسع عشر، وكان ذلك بهمة الشيخين: محمد الحوت وعبد الله خالد، حيث جاءت بعض العائلات البيروتية إلى الشيخ عبد الله خالد، ولفتت نظره إلى خطر وقوع أولادهم تحت تأثير المُبشِّرين في المدارس الأجنبية، الذين كانوا يستغلون وجود هؤلاء الأولاد في مدارسهم، لتحويلهم من الديانة الإسلامية إلى الديانة المسيحية. وحمل الشيخان هذه الشكوى إلى والي الأيالة، الذي اتصل باستانبول، وعمد الشيخان إلى اختيار جامع النوفرة لاتخاذ بعض غرفه لتدريس أبناء المسلمين فيها[٢].

إن المدرسة التي تأسَّست في جامع النوفرة حرّكت هِمَمَ البيروتيين إلى السعي لإنشاء جمعيةٍ تهتم بشؤون المسلمين، فأسَّسوا جمعية الفنون. وكانت جريدة «البصير» التركية، وهي ذات مكانةٍ في إستانبول، نشرت فصلاً ذكرت فيه تقدُّم بيروت العلمي والأدبي، وأسفت على أنه لم يكن للمسلمين نصيبٌ فيه، فحرَّك هذا التحريض همَّةَ الوجيه البيروتي الحاج سعد حماده، وأسَّس «جمعية الفنون الإسلامية»، ولكن بعد موت الحاج سعد حماده زالت الجمعية[٣].

وقد نبّه عبد القادر القباني إلى خطورة الغزو الفكري الأوروبي، الذي قدّم الدعم المادي والمعنوي للمدارس الأهلية المسيحية، وجاء ذلك في جريدة «ثمرات الفنون»، حيث قال:»إن أوروبا لم تتجشَّم هذه المتاعب رحمةً بالشرق، ولا رأفةً بأهل الشام، إنما

(١) أنيس الأبيض، الحياة العلمية ومراكز العلم في طرابلس منذ الربع الأخير في القرن التاسع عشر حتى بداية الانتداب الفرنسي، رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، الجامعة اللبنانية، ١٩٨٠، صص ١٠–١٦ .

(٢) عبد القادر قباني، الكشاف، مج١، العدد٢، السنة الأولى، بيروت: مطبعة وزنكر غراف طيارة، ١٣٤٥هـ–١٩٢٢م، ص٨٧.

(٣) م. ن، صص٨٦–٨٧.

رغبت أن تجعل لمشروعها السياسي حزباً لها يتغذى بمحبتها صغيرًا، فإذا كبر انتشر في البلاد وكان لها عوناً على مساعيها»[١].

وفي العام ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م، تشكلت جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، وتشكلت فروعٌ تابعةٌ لها في جميع الأقضية: طرابلس ـ وصيدا ـ وعكا، وتقريباً في كلِّ ولايةٍ سورية[٢].

لقد رأت جمعية المقاصد، ومنذ بداية نشاطها، أنه لا بد من الاهتمام بالفتاة المسلمة، وإعدادها إعداداً جيداً، ولذلك كانت باكورة أعمالها افتتاح أول مدرسةٍ للإناث في ٥ شوال ١٢٩٥هـ ـ ٢٠ تشرين الأول ١٨٧٨م[٣]. وكان افتتاح المدرسة الأولى للذكور في ٢٣ ذي الحجة ١٢٩٦هـ ـ ٧ كانون الأول ١٨٧٩م[٤]. وتوالى، في ما بعد، إنشاء المدارس التابعة لجمعية المقاصد، حتى بلغت أربع مدارس: اثنتان منها للإناث، واثنتان للذكور.

وفي العام ١٨٩٢، أفردت سالنامة ولاية بيروت أسماء بعض المدارس، والتي كانت أشبه بالكتاتيب، حيث بلغ عددها ١٢ مدرسةً خاصةً بالذكور[٥]. أما سالنامة المعارف للعام ١٣١٩، فقد أفردت أسماء ١٠ مدارس مع أسماء معلِّميها وعدد التلاميذ[٦]. أما المدارس الرشدية والإعدادية الأهلية التي أسسها المسلمون في بيروت، فكان عددها ست مدارس[٧].

المدارسُ العثمانيةُ (الرسمية):

ـ المدارسُ الرشدية:

تُعتبر بيروت من أوائل المدن العربية التي تأسست فيها المدارس الرشدية للذكور[٨]. فأول مدرسةٍ رشديةٍ، تأسَّسَت في بيروت سنة ١٢٧٤ هـ ـ ١٨٥٧م[٩]، وتأسَّست أول

(١) جريدة ثمرات الفنون، العدد ٢٠٣، ٣ ذي الحجة ١٢٩٥ هـ/ ٢٨ تشرين الثاني ١٨٧٨م.
(٢) علي حيدر مدحت، مدحت باشا، مرآت حيدر، م. س، صص ٢٠٩ـ٢١٠.
(٣) جريدة ثمرات الفنون، العدد ١٨٧، ٦ شوال ١٢٩٥ هـ/ ٢١ ايلول ١٨٧٨م.
(٤) م. ن، العدد ٢٥٨، ٢٤ ذي الحجة ١٢٩٦هـ/ ٨ كانون الأول ١٨٧٩م.
(٥) سالنامة ولاية بيروت، سنة ١٣١٠هـ، ص٢٤٤.
(٦) سالنامة نظارة المعارف، سنة ١٣١٩هـ، ج٢، ص٤٢٥.
(٧) م. ن، ص. ن.
(٨) لمزيد من التفاصيل راجع: سالنامات ولاية سورية وبيروت ونظارة المعارف.
(٩) سالنامة ولاية سورية، ١٣٠١ هـ، ص١٥٥.

مدرسةٍ رشديةٍ للبنات في العام ١٨٨٩م، وهي المدرسة الرشدية الثانية للبنات في المدن العربية بعد دمشق[١].

ـ المدارسُ الإعدادية:

تعود بداية إنشاء هذه المدارس إلى سنة ١٣٠٢ هـ ـ ١٨٨٤م، حيث تأسست أول مدرسةٍ سلطانيةٍ في بيروت، واستمرت قائمةً حتى سنة ١٨٨٨م، ثم تحوَّلت إلى مدرسةٍ إعدادية[٢].

المدرسةُ السلطانية:

كانت جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت، وقبل تحويلها إلى مجلس شعبة المعارف في العام ١٨٨٢م[٣]، فكّرت بإنشاء مدرسةٍ سلطانيةٍ، إلا أن الحلم توقف بعد تحويلها إلى مجلس المعارف، حيث أكمل مجلس المعارف المهمة، وقام بافتتاح المدرسة السلطانية الأولى في الولايات العربية، والثانية في الولايات العثمانية بعد مركز ولاية كريت[٤]. وقامت السلطات العثمانية بتقديم كل أنواع الدعم والمساعدة لهذه المدرسة، حيث قدَّمت لها مبلغاً وقدره ستة آلآف قرش[٥].

وكانت المدرسة السلطانية مفتوحة الأبواب لتعليم الأطفال وتربيتهم، من كلِّ الطوائف التابعة للدولة العثمانية، مع الإذن لكل ذي دِينٍ أن يؤدِّيَ وظائفَ دينِهِ من عقائد وفرائض حسب معتقده، وإلزام المسيحيين يوم الأحد أن يذهبوا لأداء عباداتهم[٦].

ولكن، بعد خمس سنواتٍ، وبـإرادةٍ سَنِيَّةٍ، تمَّ تحويل هذه المدرسة إلى مدرسةٍ إعداديةٍ، وذلك في سنة ١٨٨٨م[٧]. وبما أن هذه المدرسة أقفلت، فلذلك لم تُسمَّ المدرسة

(١) م. ن. ص. ن.
(٢) فاضل بيات، المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني....، م. س، ص٣١٠.
(٣) حول أسباب هذا التحويل أنظر: خالد الجندي، جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت في ضوء الوثائق العثمانية، بيروت: دار المقاصد، ٢٠١٥.
(٤) سوسن آغا قصاب وخالد عمر تدمري، بيروت والسلطان، ٢٠٠ صورة من محفوظات عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ـ١٩٠٩م)، بالتعاون مع بلدية بيروت، لبنان، ص٦٣.
(٥) BOA, Maarif Nezarati Evraki:MF. MKT, Dosaya No: 115.
(٦) جريدة ثمرات الفنون، العدد ٦٨٦، ٩ شوال ١٣٠٥هـ/ ٦ حزيران ١٨٣٨م.
(٧) فاضل بيات، المؤسسات التعليمية في المشرق العربي العثماني...، م. س، ص٣٦٦.

السلطانية الأولى. أما المدرسة السلطانية الأولى، وحسب سالنامة نظارة المعارف، فقد تأسست في سنة ١٩١٠م[١]. فيما تأسست المدرسة السلطانية الثانية في سنة ١٩١٣م[٢].

مدارسُ الصنائع:

تأسست في ولاية بيروت أربع مدارس للصنائع، إثنتان منها في مدينة بيروت، وواحدةٌ في كلٍّ من صور ونابلس. أما الأولى، فقد تأسَّست في سنة ١٨٩٩م، وكانت مخصَّصة للبنات[٣]. أما الثانية فقد تأسَّست في سنة ١٩٠٧م، وتمَّ افتتاحها في الذكرى الثانية والثلاثين من الجلوس السلطاني، وسُمِّيت بـ «مدرسة الحميدية للتجارة والصناعة في بيروت»[٤].

المدرسة النموذجية للزراعة:

كانت ولاية بيروت، شأنها شأن الولايات الأخرى، تفتقر إلى الدوائر الزراعية التي بوسعها النهوض بالواقع الزراعي، وبعد العام ١٩٠٨م بدأت وزارة التجارة والزراعة تولي اهتماماً بهذا الأمر. وعندما تولَّى عزمي بك ولاية بيروت، سعى إلى زيادة التَّخصيصات المالية في ميزانية الولاية. لتأسيس مدرسةٍ زراعيةٍ في كل لواءٍ من ألوية الولاية. وفي ١٤ تشرين الثاني ١٩١٥م، افتتحت المدرسة النموذجية للزراعة في بيروت[٥].

مدرسة الألْبَان:

أسَّسها والي بيروت حازم بك في سنة ١٩١٦م، بهدف إحياء صناعة الألْبَان، وذلك بتعليم صناعة اللَّبَنِ، والزبدة، والقشدة، والجبن بأنواعه المختلفة، وفق الأساليب الحديثة، وتقرَّر قبول ٢٠ طالباً كل عامٍ، يدرسون على نفقة الحكومة[٦].

دار الحرير:

وهي من المدارس التي افتتحتها وزارة التجارة والزراعة بهدف تعليم صناعة الحرير بشكلٍ علميٍّ، وعلى الأغلب تأسست هذه المدرسة في سنة ١٩١٣ـ١٩١٤م[٧].

(١) سالنامة معارف نظارات قلمي، ١٣٢٩ ـ١٣٣٠هـ، صص٤٠ـ٤٨.
(٢) فاضل بيات، المؤسسات التعليمية...، م. س، ص٣٥٧.
(٣) سالنامة ولاية بيروت، سنة ١٣١٨ هـ، ص٦٦.
(٤) سالنامة ولاية بيروت، سنة ١٣٤٦ هـ، صص ٩٦ ـ ١٠٠.
(٥) محمد رفيق ومحمد بهجت، ولاية بيروت، م. س، ص٦٤.
(٦) م. ن، صص٦٤ـ٦٥.
(٧) فاضل بيات، المؤسسات التعليمية في المشرق...، م. س، ص٤٠٨.

دارُ المعلمين:

في سنة ١٨٩٢، صدر قرارٌ بتأسيس دار المعلمين في بيروت، إلاّ أن تأسيسها في هذا الوقت لم يكن بالأمر السهل، بسبب عدم توافر الكادر التعليمي، لذلك سعى مدير معارف بيروت محمود جلال الدين بك لتزويدها بمعلمين فخريين، يتم اختيارهم محلياً، وعلى وجه الخصوص من موظفي الولاية القادرين على التدريس، كلٌّ حسب اختصاصه[١].

مدرسةُ الحقوق:

تعود فكرة تأسيس مدرسة الحقوق في بيروت إلى سنة ١٩١٢م، حيث طالب والي بيروت حازم بك بتأسيسها. وتقرَّر أن يتمَّ افتتاح المدرسة بشكلٍ رسميٍّ في شهر تشرين الأول ١٩١٣م، وأن تضمَّ أربعة صفوفٍ، أي جميع المراحل الدراسية[٢].

المدرسةُ الطبِّيَّةُ العثمانية:

استمرت المدرسة الطبِّية قائمةً في دمشق حتى نشوب الحرب العالمية الأولى، حيث اضطرت إلى إغلاق أبوابها. وسعى والي بيروت في سبيل افتتاحها مُجدَّداً في بيروت، وقد تحقَّق سعيُ الوالي وافتُتِحت المدرسة رسمياً في العام ١٩١٦م[٣].

دارُ الفنون (الجامعة):

في سنة ١٩١٢م، أرسل والي بيروت حازم بك مذكِّرةً إلى وزارة المعارف، عرض فيها واقع التعليم في بيروت، والدورَ الذي تلعبه المؤسَّسات التعليمية الأجنبية بهذا الخصوص، وما تقوم به من أعمالٍ تحريضيةٍ ضد الدولة العثمانية، وطالب باتخاذ التدابير اللازمة للتصدِّي لذلك. ومن هذه التدابير، تأسيس دار الفنون (جامعة) في بيروت، وتضمُّ فروع الطب والحقوق والتجارة، ولكن رغبة الوالي لم تتحقق كاملةً إلاّ بتأسيس بعض الفروع، وذلك في ١٢ نيسان ١٩١٣م[٤].

(١) م. ن، ص٤٣٤.
(٢) م. ن، ص٤٧٨.
(٣) م. ن، صص٤٩٠ـ٤٩١.
(٤) م. ن، صص٤٩٣ـ ٤٩٤.

المدرسةُ الرشديةُ العسكرية:

تأسَّست المدرسة الرشدية العسكرية في بيروت في سنة ١٨٧٧م، وكانت تتبع الجيش الخامس السلطاني[١].

المطابعُ في بيروت:

أُنشئَ في بيروت عددٌ كبيرٌ من المطابع، نذكر منها: السورية، والكاثولكية، والأميركانية، والأدبية، والفوائد، والعمومية، والعلمية، وبنكرتين، والحميدية، والآدابة، والكلية، والمصباح، ومطبعة دانسيه، والتجارية[٢].

الصُّحف:

كما شهدت بيروت، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، عدداً كبيراً من الصحف المحلية، باللغات العربية والعثمانية والفرنسية والإنكليزية، ومنها: بيروت، البشير، الإقبال، ثمرات الفنون، لسان الحال، التقدم، النشرة الأسبوعية، الهدية، كوكب الصبح المنير، الأحوال، طرابلس، طرابلس الشام، حديقة الأخبار، المشرق، الطبيب، المنار[٣].

بعد كل هذا العرض الذي قدَّمنا عن الحياة العلمية والثقافية في بيروت في عهد الدولة العثمانية، التي لم تترك مجالاً علمياً إلاّ وطرقته وفتحت له المدارس، فهل تنطبق عليها صفة الجهل والتخلّف، رغم كونها تأخّرت بفتح المدارس في الولايات العربية العثمانية، وقد ذكرنا الأسباب التي أدت إلى تأخّرها؟

الخاتمة:

شغل التعليم الخاصُّ، وما يزال، حيِّزاً كبيراً في لبنان، فقد بدأ منذ أواسط القرن التاسع عشر، إبان الحكم العثماني، مستفيداً في الدرجة الأولى من نظام الامتيازات في الدولة العثمانية، وهو النظام الذي كُرِّسَتْ بموجبه امتيازاتُ الطوائفِ غير الإسلامية، فمنحها حرِّيةً واسعةً في إنشاء مدارسها. مع الإشارة إلى تأخّر الحكم العثماني، الذي

(١) سالنامة ولاية سورية، سنة ١٣٠١هـ، ص١٣٨.
(٢) سالنامة ولاية نظارات معارف عمومية، ١٣١٧هـ، ص١٠٨٨.
(٣) م.ن، ص١٠٨٩.

كانت المناطق اللبنانية خاضعةً له، بإنشاء المدارس الحكومية، فقبل صدور التنظيمات في الدولة العثمانية، كان التعليم متروكاً للمبادرات الأهلية والأجنبية.

ويبدو أن اهتمام الدولة العثمانية بإنشاء المدارس الحكومية، لم يبدأ إلاّ مع حركة الإصلاحات التي سادت خلال القرن التاسع عشر، وأكّدت الإصلاحات على أن الإصلاح يجب أن يعمَّ مرافق الدولة جميعها، وأن إنشاء مدارس صالحةٍ في أرجاء الإمبرطورية كفيلٌ بالقضاء على الجهل المسيطر على الشعب عامة. كما أكّدت الإصلاحات على «الحرية المطلقة» للطوائف غير الإسلامية في ترميم المستشفيات والمدارس والمعابد والمرافق، مما يعني أن الدولة عالجت قضية المدارس الخاصة، في بادىء الأمر كمسألةٍ تخصُّ الجماعات الطائفية، لا لقضيةٍ تهمُّ أبناء البلاد جميعاً.

وعندما بدأت الدولة العثمانية بتنظيم التعليم، كانت محكومةً بعوامل، من أبرزها: نظام الملة (نظام الامتيازات)، وهيئة العلماء، ورجال الدين المسلمون.

فنظام الملة هو ذلك النظام الذي أعطى رعايا الدولة العثمانية من غير المسلمين، الحقَّ في أن تكون لهم مؤسَّساتهم الخاصة تحت سلطة رؤسائهم الروحيين. وقد عَمَدَ هؤلاء إلى تأسيس نظامٍ للتربية خاصٍّ بهم. وكان من نتيجة ذلك، أنهم لم يهتمُّوا بالمؤسَّسات التربوية التي أنشأتها الدولة، حيث كان طلاب وتلاميذ التعليم الرسمي في الدولة العثمانية بأكثريتهم من المسلمين. وقد اعتبرت الدولة العثمانية شؤون التعليم من جملة الأمور المرتبطة بالأديان والمذاهب، فخوَّلت جميع الطوائف حقَّ تأسيس المدارس وإدارتها.

أما نظام الامتيازات فهو الذي أتاح للدول الأجنبية، بناءَ مؤسساتٍ تربويةٍ خاصَّةٍ بها، ونشرَ الإرساليات التبشيرية في جميع أجزاء الإمبراطورية العثمانية.

وأما العلماء ورجال الدين المسلمون، فقد كان لهم أكبر الأثر في الإبقاء على التربية العثمانية في إطارها التقليدي، أي قائمةً في المساجد والكتاتيب.

ولم تكن المناطق اللبنانية بمنأى عن تأثير هذه العوامل، بل تأثَّرت بها إلى حدٍّ بعيد. على أن الوضع الخاصَّ الذي أصبح يتمتع به جبل لبنان خلال عهد المتصرفية، وفَّر لسكانه قسطاً من الحرية لم يحظَ به أبناء الولايات العثمانية، وكان لاتصال المسيحيين بالغرب أثره في انتشار التعليم الذي كانت توفره البعثات التبشيرية منذ بداية القرن السابع عشر.

وكان لمجيء الإرساليات التبشيرية المسيحية، وتنافسها على اجتذاب اللبنانيين إلى المدارس التي أنشأتها لخدمة أغراضها، أثرٌ في إذكاء الخلاف الطائفي بين المسلمين والمسيحيين. وقد بدأ المسلمون يحسُّون «بتقصير» المدارس العثمانية، وفي الوقت نفسه لم يكونوا راضين عن مدارس الإرساليات، ولذلك أخذوا ينشئون المدارس الإسلامية بدعمٍ من والي سورية «مدحت باشا».

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، تنبّهت الدولة العثمانية إلى خطر الغزو الفكري الأوروبي، الذي كان يعمل على التحريض ضد الدولة العثمانية، وإذكاء نار الفتنة، فَشَرَعت بإنشاء مدارس في بيروت، فاق عددُها عدد مثيلاتها في المدن والولايات العربية العثمانية.